

والتجارب ، أراد القاضي الجرجاني أن يدافع عن هذا الشعر ، فقال إن مراد الشاعر أن هذا الليل زائد في الطول على مقادير الليالي ، كزيادة نفس العاشق على الأنفاس . وقال إن هذا وجه لا يرى به بأس في تصحيح المعنى ، وإن أحسن بعد ذلك في قوله : وإن كان من الرأي ألا يؤخذ الشاعر بهذه الدقائق الفلسفية ، ما لم يأخذ نفسه بها ، ويتكلف العمل لها ، فيؤخذ فيها حينئذ بحكمه ، ويطالب بما جنى على نفسه ! .

ومثلاً آخر يدل على القياس الخاطيء بمقياس العقل المجرد على فن الشعر ، وتناسي حقيقة العواطف والمشاعر ، التي قد تخالف ما هو معروف للذين لم يعانوا تجربة الشاعر ، فإن علماء البلاغة يرفضون الغلو في المعاني ، وهو عندهم أن يكون الوصف المدعى غير ممكن عقلاً ولا عادة ، إلا لبعض الأسباب ، كأن يدخل عليه ما يقربه إلى البصحة ، أو أن يتضمن نوعاً حسناً من التخيل ، أو أن يخرج مخرج الهزل والخلاعة . وقد مثلوا لذلك النوع الثالث ، أي للغلو الذي يقبل لهزله وخلاعته بقول الشاعر :

أسكر بالأمس إن عزمت على الشر ب غداً إن ذا من العجب !

وقالوا إن هذا مبالغة في شغفه بالشرب ، فادعى أن شغفه بالشرب وصل لحالة هي أنه يسكر بالأمس عند عزمه على الشرب غداً . ولا شك أن سكره بالأمس عند عزمه على الشرب غداً محال ، إن أريد بالسكر ما يترتب على الشرب ، وهو المقصود هنا ، لما فيه من تقدم المعلول على علته . ولكنهم يسوغون هذا المستحيل بأن الشاعر لما أتى بهذا الكلام على سبيل الهزل ؛ أي لمجرد تحسين المجالس والتضاحك وعلى سبيل الخلاعة ، أي عدم ميالاته بالقبيح الذي ينهى عنه ، كان ذلك الغلو مقبولاً ، لأن ما يوجب التضاحك من المحال لا يعد صاحبه موصوفاً بنقيصة الكذب عرفاً . وإنما لم يقبل الغلو الخارج عن المسموح لأنه كذب محض ، والكذب بلا مسوغ نقيصة عند جميع العقلاء .

ذلك ما قاله علماء البلاغة في ذلك البيت ، وهم لم يرضوا أن يرفضوه لاستحالته كما يقولون عقلاً وعادة ، بل قبلوه واستحسنوه على الرغم من أنه في نظرهم كذب محض ، وسوغوه ذلك التسويغ المضحك ، بأنه خرج مخرج الهزل والخلاعة والمجون ! .

وكأنهم عرفوا أنه ليس من حقهم أن يرفضوا هذا الشعر الصادق في تعبيره عن حقيقة المشاعر التي عبر عنها الشاعر ، وهو يصف تجربة الخمر التي شغف بها ، ولا يكاد يفريق من شربها أو الهيام بها ، فهو يشربها ليلاً ونهاراً ، وصباحاً وغبوقاً ، وإذا حرمها اليوم فإنه سيحتسبها غداً ، فإن فاته الغد فإن في بعده أملاً جديداً ، وفرجاً قريباً .